



**المناخ الأسري وعلاقته بالصحة النفسية للطفل: رؤية استشرافية لتطوير
البرامج الإرشادية.**

**The Relationship Between Family Climate and Child Mental
Health: A Prospective Framework for Developing Counseling
Programs**

الرخاء عبد الفتاح

أستاذ علم النفس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة عبد المالك السعدي- تطوان - المملكة المغربية.

a.errakha@uae.ac.ma

تم النشر بالمجلة المغربية لعلم النفس بتاريخ 2026-10-14

الملخص

تُعد الأسرة، وفق المقاربة النفسية-الاجتماعية، البيئة النمائية الأولى واللبنة التأسيسية التي تحضن الطفل منذ ولادته، إذ تمده بالركائز الضرورية للتنشئة والنمو النفسي المتوازن، الأمر الذي يسهم في تشكيل معالم شخصيته وتكامل أبعادها الوجدانية، والمعرفية، والاجتماعية. وفي هذا السياق، تؤكد الأدبيات السيكولوجية أن الاستقرار الأسري والديناميات الوالدية الإيجابية يمثلان الحجر الأساس لتماسك النسق العائلي وتلبية الحاجات النفسية الأساسية للطفل. وعلى النقيض من ذلك، فإن النزاعات الأسرية واضطراب العلاقات البين-شخصية داخل المحيط العائلي يؤثران سلباً على المناخ النفسي العام للأسرة والصحة النفسية للطفل. وقد اكتسبت هذه التفاعلات أهمية مضاعفة نتيجة التحولات المعاصرة التي طرأت على دينامية المجتمع المغربي على صعيد جميع مجالاته ومؤسساته، مما أحدث تغييرات واضحة في بنى الأسرة ووسائل اشتغالها الوظيفي. وتأسيساً على الدور الحيوي للمناخ الأسري الآمن في النمو النفسي للطفل، تتبلور فكرة هذه الدراسة العلمية لترصد واقع التكفل بالأسرة، وتدعو إلى تطوير برامج تدخلية مستندة إلى خلفيات سيكولوجية، وتوظيف الإرشاد النفسي كأداة إجرائية فعالة لمعالجة اضطراب العلاقة الزوجية وإعادة التأهيل النفسي والاجتماعي للأزواج.

الكلمات المفتاحية: الإرشاد النفسي الأسري، العلاقات الأسرية، الصحة النفسية للطفل.

The Relationship Between Family Climate and Child Mental Health: A Prospective Framework for Developing Counseling Programs

Er-rakha Abdelfettah

Professor of Psychology, Faculty of Letters and Human Sciences,
.Abdelmalek Essaâdi University, Tetouan, Kingdom of Morocco

a.errakha@uae.ac.ma

Abstract

From a psychosocial perspective, the family is considered the primary developmental environment and the foundational building block that cradles the child from birth. It provides the essential pillars for socialization and balanced psychological growth, contributing to the shaping of personality traits and the integration of emotional, cognitive, and social dimensions. In this context, psychological literature emphasizes that family stability and positive parental dynamics represent the cornerstone of a cohesive family system and are vital to meeting a child's basic psychological needs. Conversely, family conflicts and dysfunctional interpersonal relationships within the home negatively impact the overall psychological climate and the child's mental health. These interactions have gained increased significance due to contemporary transformations in Moroccan society across all sectors and institutions, which have brought about clear changes in family structures and functional mechanisms. Based on the vital role of a secure environment in a child's psychological development, this scientific study aims to monitor the reality of family care. Furthermore, it calls for developing intervention programs rooted in psychological frameworks, utilizing family counseling as an effective procedural tool to address marital dysfunction and achieve the psychosocial rehabilitation of couples.

Keywords: Family Psychological Counseling, Family Relations, Child Mental Health.

تقديم

يعرف ميدان الدراسات والأبحاث في مجال السيكولوجيا تحولاً عميقاً على مستوى الاشتغال بالأسئلة الكبرى التي تؤثت حقوقه الراهنة. ولا مندوحة من القول إن موضوع الأسرة (بتفاعلاتها وصحتها النفسية) يمثل المحور الرئيسي الذي يحتضن أهم هذه الأسئلة؛ حيث انتقل علم النفس المعاصر، لا سيما في ميدان علم النفس الاجتماعي، من التركيز على البعد النفسي الفردي إلى تبني سيكولوجيا علائقية تُعنى بالوسط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الفرد ويساهم في نموه النفسي والاجتماعي.

تنبؤ الأسرة مكانة الصدارة ضمن البيئات الاجتماعية الأكثر تأثيراً في الفرد؛ إذ تجمع الأدبيات النفسية والتربوية على أن هذه المؤسسة تمثل الدعامه الجوهرية في توجيه السلوك الإنساني وبناء الشخصية (Osterrieth, 1957, p. 4). بناءً على ذلك، يكتسي البحث في هذا المجال أهمية بالغة، ويعد أحد الانشغالات المعرفية الراهنة التي تسعى إلى الارتقاء بالفكر السيكولوجي في المغرب على المستويين النظري والتطبيقي.

وتأسيساً على هذا الدور، تشكل الأسرة النواة المجتمعية الأولى والركيزة الأساسية للتنشئة الاجتماعية التي تنظم حياة الفرد، وتؤطر أنشطته، وتوجه نموه النفسي، والاجتماعي، والوجداني، والعقلي منذ بواكر طفولته. ومن ثم، فإن تحقيق الصحة النفسية للطفل وتيسير اندماجه السوي في محيطه يمثلان أسمى غايات التنشئة الأسرية. وفي هذا السياق، يرى مصطفى حجازي أن الأسرة هي الفضاء الذي «تبنى أسس الشخصية وتوجهاتها وقيمها، وفيها ترسي أسس السواء أو اللاسواء، والصحة النفسية أو الاضطراب النفسي والسلوكي (...) وبمقدار صحتها النفسية واقتدارها ستمكن من تنشئة أجيال معافاة وممكنة وفاعلة اجتماعياً وحياتياً» (حجازي، 2015، ص. 11).

تأسيساً على ما سلف، وبالرغم من الأهمية الوظيفية للمؤسسة الأسرية في إرساء التوافق والاستقرار الوجداني للزوجين، وتشكيل هويتهما النفسية والاجتماعية، فضلاً عن دورها المحوري في التنشئة ونقل المكونات السوسيو-ثقافية إلى بنية شخصية الطفل (Rocher, 2012)؛ فإن الأدبيات في علم النفس وعلم النفس الاجتماعي تكشف في المقابل عن إمكانية تحول البيئة الأسرية إلى نسق مُنتج للاعتلالات التربوية. هذا التعثر في الممارسات الوالدية ينعكس بدوره سلباً على التطور النفسي للأبناء، مفرزاً تداعيات أسرية بالغة التعقيد.

بالإضافة الى ذلك، عرفت الأسر المغربية، في الآونة الأخيرة، مجموعة من التحديات والتحولات المتسارعة العميقة (اجتماعية، قيمية، نفسية، اقتصادية...)، بسبب تأثير العديد من العوامل والمتغيرات، التي أثرت سلباً ولا زالت تؤثر عليها مما نتج عنه العديد من الأزمات والمشاكل النفسية الاجتماعية التي لها تداعياتها على النسق الأسري، وعلى المجتمع ككل (كظواهر التفكك الأسري، العنف الأسري، وعدم التوافق الأسري...). لكن الملاحظ، أن هذه التغيرات والتحولات لم يصاحبها الاهتمام الفعلي بجماعة الأسرة من خلال تكوين وتأهيل الآباء من الناحية التربوية والنفسية مما يساهم في نجاحهم بشكل كبير في إدارة شؤون الأسرة وتحقيق أهدافها.

تبعاً لما سبق، تبقى الحاجة الماسة لأهمية التكفل بالأسرة ورعايتها من خلال تطوير البرامج التدخلية في ضوء ما جاءت به نتائج الدراسات العلمية في مجال العلوم النفسية، والاستعانة بالإرشاد النفسي الأسري كأسلوب وكأداة فعالة في معالجة اضطرابات العلاقات الأسرية وتطوير المهارات النفس- اجتماعية للأزواج، مما يساهم في توفير بيئة تربوية متوازنة للأطفال وصحتهم النفسية من خلال الاستعانة بالعديد من الاستراتيجيات والتقنيات النفسية والإرشادية والعلاجية.

الإشكالية

يعالج هذا البحث — وفق منظور سيكولوجي محدد — إشكالية نفسية واجتماعية ومهنية هامة، تتعلق بالأدوار التي يؤديها الإرشاد النفسي كخدمة نفس- اجتماعية تقدم للأسر للمساهمة في بناء مناخ أسري سوي نفسياً واجتماعياً، وعلاج وتقويم كل المظاهر والعمليات غير السوية المؤثرة للعلاقات البينية (الزوجية والوالدية)، مما يساهم في تحسين التفاعلات داخل نظام الأسرة وتكيفها مع تحديات الحياة اليومية. ولا ريب في أن هذا الموضوع لم ينل حقه الكافي من البحث والدراسة في مجتمعنا المغربي.

في ظل التحولات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والقيمية التي تشهدها الأسرة المغربية المعاصرة وانعكاساتها السلبية على نسقها ووظائفها، تبرز حاجة ملحة لتوظيف أدوات العلوم النفسية ومناهجها. ويهدف هذا المقترح العلمي إلى فهم وتفسير المتغيرات النفسية والاجتماعية المؤثرة في تنظيم الأسرة من جهة، وصياغة حلول وتدخلات علاجية تتناسب مع طبيعة مشكلاتها من جهة أخرى. وقد أثمرت الأبحاث النظرية والتطبيقية في حقل علم النفس عن صياغة أطر نظرية ومنهجية مرجعية، أسهمت في تفكيك الظواهر الأسرية، واستقصاء مسبباتها، وتحديد تداعياتها. ولم يقتصر هذا الإسهام على الجانب

التفسيري فحسب، بل امتد لتقديم مقترحات علاجية وتدخلات إرشادية أثبتت فاعليتها في التعامل مع مختلف الاضطرابات والمشكلات الأسرية.⁽¹⁾

وتتجلى الأهمية الإستراتيجية لدراسة التفاعل الأسري في ضرورة إخضاع ديناميات العلاقات الزوجية —بمظهريها المتوافق والمضطرب— للتقييم والتدخل العلاجي وفق أطر منهجية وموضوعية. ويكتسب هذا الطرح وجاهته في ظل التحولات البنيوية والوظيفية التي تشهدها الأسرة المعاصرة، وما يرافقها من فجوات في الكفاءة الوالدية المرتبطة بالإدارة التربوية والدعم النفسي؛ وهي تحديات تؤثر سلباً على الاستقرار النفسي للأسرة والنمو النفسي للطفل. وتأسيساً على المقاربة النفسية، فإن كفاءة الوالدين وانخراطهما الإيجابي في مسارات التغيير يمثلان حجر الزاوية لأي استراتيجية تدخلية تستهدف تعزيز الصحة النفسية للطفل. ومن هذا المنطلق، يركز الباحثون في الحقل النفسي على تمكين هذا الفاعل التربوي، وتطوير وعيه بالمحددات النفس-اجتماعية الحاكمة للروابط الزوجية والأسرية.

أهمية هذه الورقة العلمية

تأتي هذه الدراسة استجابةً للحراك العلمي والاجتماعي المحيط بمؤسسة الأسرة والبرامج التدخلية الموجهة لها، حيث تهدف إلى تقديم مساهمة أكاديمية متخصصة تفكك الإشكالات النفسية التي تواجه الأسرة المغربية. ويتحدد المآل الاستراتيجي لهذا العمل في إرساء أسس مقارنة سيكولوجية متكاملة للأسرة، تنطلق من فهم عميق لواقعها الدينامي، بغرض إنتاج معرفة علمية رصينة تتوافق مع الخصوصيات النفسية والثقافية للمجتمع المغربي. ومن جهة أخرى، يسعى هذا التوجه السيكولوجي إلى توفير قاعدة بيانات وخلفية علمية صلبة تدعم صياغة الخطط المستقبلية الكفيلة بتحسين البناء الأسري، وضمان التوافق والصحة النفسية لأفراده.

وتتحدد الأهمية العلمية والتطبيقية لهذا الموضوع في النقاط الآتية:

- تسليط الضوء على الدور المحوري للإرشاد النفسي في تحقيق الاستقرار الأسري، وتقديم منظور معرفي جديد يساهم في تعزيز جودة الحياة الأسرية وتعميق أدبياتها.
- إبراز أثر المتغيرات النفسية والاجتماعية في توجيه التفاعلات بين-شخصية بين الأزواج، ورصد انعكاساتها المباشرة على التوافق الزوجي والصحة النفسية للأبناء.
- إيضاح دور التأهيل النفسي والاجتماعي —بمراحلته القبلية والبعديـة— للأزواج في الحد من النزاعات، وتعديل تمثلاتهم الإدراكية نحو الذات، والآخر، ومؤسسة الأسرة.

¹ يُعدّ علم النفس الأسري من الفروع الحديثة في المنظومة السيكولوجية، حيث يشكّل مجالاً نظرياً وتطبيقياً متكاملًا يستند إلى أطر مرجعية، وأدوات منهجية، وآليات إجرائية متخصصة. يرتكز هذا الفرع على دراسة الأسرة بوصفها نسقاً نفسياً واجتماعياً، متبنياً في ذلك مقاربة تكاملية استفادت بشكل مباشر من الطفرات المعرفية التي شهدتها حقول علم النفس الأخرى كعلم النفس الاجتماعي، والمعرفي، والمرضي، بالإضافة إلى تقاطعه المعرفي مع العلوم الإنسانية المجاورة وفي مقدمتها علم الاجتماع.

- توفير أرضية علمية رصينة تفتح آفاقاً بحثية واعدة في ميدان العلوم النفسية والاجتماعية، بما يتيح للباحثين والمتخصصين استثمار نتائجها وتوصياتها في دراسات مستقبلية امتدادية.
- تزويد صناع القرار وواضعي السياسات العمومية بمعطيات سيكولوجية وميدانية دقيقة حول الصحة النفسية للأسر؛ تبرز نمذجة الإرشاد الأسري كخدمة نفسية واجتماعية ضرورية تدعم مؤسسة الاستراتيجيات التنموية وفق مناهج علمية موجهة.

ترتبط فاعلية هذه الدينامية بمدى تنوع وجودة الأطر المنهجية المعتمدة في خطط التدريب، والتوجيه، والمساندة النفس-اجتماعية. ويرتكز هذا التصور على بناء مسار تأهيلي شامل يسعى إلى إكساب الأزواج مهارات نفسية، واجتماعية، وسلوكية، وتربوية؛ بما يضمن تعزيز مرونتهم في التعامل مع المتغيرات الراهنة وإكراهات العولمة. علاوة على ذلك، تساهم هذه المداخل دوراً حاسماً في إمداد الأسر ذات الاختلال الوظيفي بحزم علاجية نوعية تطوق مخاطر التفكك؛ هذه الاختلالات التي تتضح مؤشراتها في تزايد حدة الصراعات الزوجية والاضطراب الأسري الذي يشهده المجتمع المغربي المعاصر.

تأسيساً على الطروح النظرية والأدبيات السابقة، تتبلور الإشكالية البحثية للدراسة الحالية في تقصي أبعاد العلاقة الارتباطية بين البيئة الأسرية والديناميات النفسية للطفل، فضلاً عن استشراف الفعالية الإكلينيكية للممارسات الإرشادية الموجهة للمنظومة الأسرية.

وبناءً على ذلك، تتحدد التساؤلات الرئيسة للبحث وفق الآتي:

- إلى أي مدى يسهم المناخ الأسري في التنبؤ بمستوى الصحة النفسية للطفل ومسار نموه النفسي الاجتماعي؟
- ما هي الأطر المفاهيمية، والمبادئ المنهجية، والتقنيات العلاجية التي يستند إليها الإرشاد النفسي الأسري؟
- ما مدى فاعلية التدخلات الإرشادية الأسرية في تقييم واضطرابات العلاقات البين-شخصية داخل النسق الأسري وعلاجها؟

تأسساً على ما سبق، يتطلب الفهم الشامل لهذه الإشكالية إحاطة إستمولوجية بأبعادها المتعددة ومحدداتها المتغيرة. إن هذا الفهم التكاملي يشكل ركيزة أساسية لصياغة تدخلات علاجية واجتماعية فعالة وموضوعية، دون أن يغفل ذلك الخصوصية المنهجية للتخصص المعتمد، وهي حدود تنسم بها عموماً المقاربات العلمية في نطاق العلوم الإنسانية.

يتطلب الفحص العلمي لهذه الإشكالية صياغة إطار مفاهيمي دقيق يحدد المتغيرات النفسية قيد الدراسة، ويتم استعراضها كالتالي:

أولاً: نحو طرح إشكالي لبعض المفاهيم المركزية

تأسيساً على المنهجية العلمية المتبعة، يركز الإطار المفاهيمي لهذه الدراسة على ضبط المصطلحات المركزية وتحديد أبعادها الإجرائية. وتتمحور هذه المقاربة الاصطلاحية حول ثلاثة مفاهيم رئيسة هي: الإرشاد النفسي الأسري، والعلاقات الأسرية، وصولاً إلى الصحة النفسية للطفل.

بمعزل عن السجلات الإستمولوجية المحيطة بهذه الأطر المفاهيمية، يتناول هذا الفصل في مقاربتة الأولية رصد الأبعاد الدلالية والسياقات التفسيرية لتوظيفها في حقل علم النفس، ولا سيما علم النفس الاجتماعي. ويشكل هذا التأطير ركيزة أساسية لتطوير مناقشة نقدية حول المرجعيات النظرية والمنهجية المعتمدة في دراسة النسق الأسري، وفهم محدداته النفس-اجتماعية، فضلاً عن تفكيك ديناميات علاقاته التفاعلية في أبعادها الداخلية وتشابكاتها الخارجية.

فيما يخص المفهوم الأول، وهو الإرشاد النفسي الأسري، فإن ما نستخلصه من مختلف الدراسات السيكلوجية المهمة بقضايا الإرشاد، هو أن هذا المفهوم أصبح يعني بالدرجة الأولى: مجموعة الأساليب والمناهج والاستراتيجيات القصدية والمنظمة والهادفة التي يتبعها المرشد النفسي لتأهيل الأزواج وتوعيتهم. كما يهدف إلى مساعدتهم في القيام بأدوارهم المختلفة، وإدراك ذواتهم، وتقدير مؤهلاتهم، وبناء صورة واقعية عن محيطهم، بالإضافة إلى توجيههم في عمليات اتخاذ القرار ومعالجة المشاكل الأسرية؛ مما يساهم في تحقيق التوافق الأسري، ويمنحهم مستقبلاً قدرة أفضل على التدبير العقلاني، وهو ما ينعكس إيجاباً على الطفل ونموه النفسي والاجتماعي.

يُعرف الإرشاد النفسي –حسب الرابطة الأمريكية للإرشاد النفسي (ACA)– بأنه «تطبيق مبادئ الصحة النفسية، وعلم النفس، والنمو الإنساني من خلال استراتيجيات تدخل معرفية، أو عاطفية، أو سلوكية، تركز على العافية وحسن الحال (Wellness)، والنمو الشخصي، كما تهتم بالحالات المرضية» (حجازي، 2011، ص 36).

وفي السياق ذاته، تُشكّل العلاقات الأسرية الركيزة الجوهرية لفهم ديناميات الأسرة وتقييم توافقها وصحتها النفسية. ويشير هذا المفهوم إجرائياً إلى شبكة التفاعلات البينشخصية (Interpersonal) المتبادلة بين أفراد النسق الأسري؛ وتتمثل في الروابط الزوجية، وأنماط التواصل الوالدي (بين الآباء والأبناء)، فضلاً عن طبيعة التفاعلات الأخوية. وتتجسد هذه الروابط وفقاً لتعريف دوبي (Dubé) بأنها «روابط

مستمرة بين شخصين أو أكثر، يتأثر فيها كل طرف بالآخر متبادلاً الأدوار ضمن أبعاد وجدانية، ومعرفية، واجتماعية، وزمنية متداخلة (Dubé, 2006, as cited in Delouvé, 2010, p. 157).

ويشكل موضوع العلاقات داخل الجماعات (ومنها جماعة الأسرة) أحد المجالات الأكثر دينامية وإثارة للبحث في التناول العلمي للقضايا النفس-اجتماعية؛ إذ يمثل هذا الموضوع، حسب فيشر، «الأساس لمجموعة من المقاربات المرجعية في مجال علم النفس الاجتماعي لفهم مختلف ظواهر التواصل والتفاعل داخل الجماعات» (Fischer, 2010, p. 43). ووفق هذا المنظور، تُعرّف جماعة الأسرة، في دلالتها السيكو-سوسيولوجية العامة، بأنها «جماعة أولية» تتكون من بنية من العلاقات الدينامية بين مجموعة من الأفراد ضمن إطار زمني ومكاني محدد، وتحكمها داخلياً محددات نفسية، واجتماعية، وثقافية، ودينية، إلى جانب مجموعة من الضوابط القانونية والتشريعية. كما تُعتبر الأسرة المجال التفاعلي التبادلي الذي يحتضن الطفل عند الولادة، ويضمن له شروط التنشئة الاجتماعية وتكوين الشخصية بمختلف جوانبها النفسية، والمعرفية، والاجتماعية.

أما مفهوم **الصحة النفسية** فيعد من أكثر المفاهيم جدلاً وتعددًا في التناول السيكولوجي؛ ويرجع هذا التباين إلى تشابك أبعاده من جهة، ودينامية السلوك الإنساني وتأثره بمتغيرات متداخلة (نفسية، واجتماعية، وثقافية، وبيوعصبية) من جهة أخرى، بخلاف الصحة الجسدية التي ترتبط غالباً بعوامل فيزيولوجية محددة. وعلاوة على ذلك، تتأثر مقاربة هذا المفهوم بتعدد الخلفيات النظرية ونماذج التحليل المعتمدة. وإذ يتجاوز هذا المقال السجال النظري المحيط بالمفهوم، فإنه يقتصر على تقديم تحديد إجرائي أولي يعكس التداول السائد في الأدبيات النفسية. وبناءً عليه، يمكن النظر إلى الصحة النفسية كحالة من التوافق النفسي والتكيف الوظيفي للفرد (وجدانياً، ومعرفياً، واجتماعياً)، تتجلى في قدرته على إدارة الضغوط، ومواجهة الأزمات، وتحقيق اندماج سليم ومتوازن داخل بيئته الاجتماعية.

في هذا الإطار، يُعرّف حامد زهران (2005، ص. 9) الصحة النفسية بأنها: «حالة دائمة نسبياً، يكون فيها الفرد متوافقاً نفسياً؛ شخصياً وانفعالياً واجتماعياً، أي مع نفسه ومع بيئته، ويشعر بالسعادة مع ذاته ومع الآخرين، ويكون قادراً على تحقيق ذاته واستغلال قدراته وإمكانياته إلى أقصى حد ممكن، بالإضافة إلى قدرته على مواجهة مطالب الحياة وتكامل شخصيته السوية». وتأسيساً على هذا التعريف، فإن الصحة النفسية للفرد تتأثر طردياً بمجموعة من المحددات النفسية والاجتماعية داخل الأسرة، وبمختلف الأساليب والأنماط المعتمدة في عملية التنشئة الاجتماعية.

بناءً على المراجعة النقدية للتعريفات الاصطلاحية السابقة، يمكن إجمال الاستنتاجات المحورية في النقاط الآتية:

- تتسم المتغيرات المدروسة (العلاقات الأسرية، الصحة النفسية، والإرشاد النفسي الأسري) بالتداخل والتكامل البنوي، حيث تقع جميعها ضمن شبكة من التفاعلات والتأثيرات المتبادلة المستمرة.
 - إن تبني المقاربة النفسية في هذا السياق يهدف إلى تسليط الضوء على الأبعاد السيكلوجية كأولوية تحليلية، دون إغفال المقاربات الأخرى وفي مقدمتها المنظور السوسيولوجي. ويروم هذا التوجه التأسيس لوعي منهجي متعدد الأبعاد يحيط بمؤسسة الأسرة؛ باعتبارها نسقاً دينامياً يتأثر بمتغيرات ومحددات سياقية مركبة، مما يستدعي بالضرورة تضافر مقاربات تفسيرية وتقاطعات معرفية متعددة.
- بناءً على التحديدات المفاهيمية السابقة، ننتقل الآن إلى معالجة الإشكالية المحورية للمقال، والمتمثلة في سيكلوجية العلاقات الأسرية وأثرها على الصحة النفسية للطفل، مع إبراز دور الإرشاد النفسي في هذا السياق.

ثانياً: سيكلوجية العلاقات الأسرية و تأثيرها على النمو النفسي الاجتماعي والصحة النفسية للطفل.

1. سيكلوجية جماعة الأسرة: الأبعاد الوظيفية والمحددات البنوية

تتبوأ المؤسسة الأسرية مكانة محورية في مسار التنشئة الاجتماعية للطفل، وينبع هذا الدور الجوهرى من طبيعة التأثير الديناميكي المتبادل بين الأسرة والنسيج المجتمعي ككل. وبناءً على ذلك، فإن تحقيق أي إصلاح مجتمعي مستدام يستلزم بالضرورة التركيز على ديناميكية الجماعة الأسرية، وتحسينها ضد الأزمات النفسية والاجتماعية التي قد تهدد استقرار بنيتها أو سلامة أفرادها بدرجات متفاوتة.

في هذا الإطار، تؤكد الأبحاث السيكلوجية المتخصصة في الشأن الأسري أن الأسرة هي الجماعة الأولى والمؤسسة الأقوى تأثيراً في سلوك الفرد وبناء شخصيته (زهران، 1977، ص. 222). وبذلك، فهي تسبق المؤسسات التربوية والاجتماعية الأخرى كافة في عملية التنشئة؛ إذ تضطلع بتشكيل معالم شخصية الطفل عبر أساليبها التوجيهية المتنوعة (أحرشوا، 2009، ص. 9). وهي أساليب تتباين من أسرة إلى أخرى في ضوء منظومة من المعايير والقيم، وتبعاً لطبيعة البنية الأسرية، والطبقة الاجتماعية، والبيئة الثقافية والجغرافية المحيطة بها (زهران، المرجع نفسه).

كما تعتبر الأسرة وسيطاً ديناميكياً مهماً بين الفرد والمجتمع، وتسهم في إشباع الحاجات النفسية والعاطفية الأساسية للزوجين والأولاد. وهناك مجموعة من الوظائف الأخرى؛ كالوظيفة الاقتصادية التي تتمثل في تأمين الحاجات المادية لأفراد الأسرة، والوظيفة الاجتماعية المتمثلة في منحهم المكانة الاجتماعية ورمزية الانتماء وتكوين الهوية النفسية الاجتماعية، وغيرها من الوظائف.

2. العلاقات التفاعلية داخل الأسرة وأثرها على الصحة النفسية للطفل

تُمثّل الأسرة نسقاً دينامياً وجماعة أولية صغرى محكومة بآليات التفاعل النفسي-الاجتماعي، حيث ترتبط مكوناتها بشبكة من العلاقات البين-شخصية الممتدة زمانياً ومكانياً. ويُتيح التواصل المباشر (وجهاً لوجه) داخل هذا النسق بناء تمثلات معرفية متبادلة؛ إذ لا يقتصر الأمر على تشكيل الفرد لتمثلاته عن الآخرين، بل يمتد ليتضمن إدراكه لتمثلاتهم تجاهه (الإدراك الاجتماعي المتبادل). ومن رحم هذه التفاعلات المستمرة، يتبلور مناخ نفسي-اجتماعي موجّه، يُسهم محورياً في تحقيق التوازن الوظيفي للأسرة وتسيير أدوارها.

وفقاً لهذا المنظور، يؤكد مصطفى حجازي أن العلاقات التفاعلية بين أعضاء الأسرة تتميز بالتعقيد والتشابك؛ إذ يؤثر سلوك كل عضو في بقية الأعضاء. فولادة طفل جديد، على سبيل المثال، لا تشكل مجرد زيادة عددية في أفراد الأسرة، بل تمثل بروزاً لكيان جديد يُحدث تحولات جذرية في أنماط التفاعل داخل النسق الأسري وفي أدوار أعضائه. وبناءً على ذلك، فإن أي تغيير أو اضطراب يلحق بأحد مكونات هذا النسق يتداعى لينعكس على المكونات الأخرى. ومن زاوية ثانية، فإن هذه العلاقات الداخلية لا تحكمها الديناميات البينية لأعضائها فحسب، بل تخضع أيضاً لتأثيرات عوامل خارجية (أفراد وجماعات أخرى)؛ ويظهر هذا التأثير إما على المستوى الفردي (كعلاقة أحد الأعضاء بفرد ينتمي لأسرة أخرى)، أو على مستوى الجماعة ككل (كعلاقة النسق الأسري بالأنساق الأسرية الأخرى).

العلاقة بين الوالدين

بما أن النسق الأسري بنية مركبة ومتداخلة من عناصر متفاعلة، فإن أي خلل أو اضطراب يطرأ عليه ينعكس على مكوناته كافة. ووفقاً لهذا المنظور، تؤدي العلاقات السوية والتوافق الوالدي داخل الأسرة دوراً حاسماً في تحقيق الاستقرار والتماسك الأسري، مما يلبي حاجة الطفل إلى الأمن النفسي والتوافق الاجتماعي، ويحفز نمو شخصية متزنة وسوية لديه. وفي المقابل، تتسبب الخلافات الزوجية المتكررة في تصدع البناء الأسري وخلق توترات تفضي إلى ظهور أنماط سلوكية مضطربة عند الطفل.

وفي هذا السياق، يرى حجازي أن أنماط التفاعل الفرعية السلبية بين الزوجين والمولدة للصراعات والمشكلات —والتي تتحوّل نحو التكرار— تتحول لاحقاً إلى قوالب جامدة؛ وتعمق التباعد العاطفي والفكري بينهما، الأمر الذي يذكي بدوره المزيد من النزاعات والشجارات. وبناءً عليه، فإن التوافق الزوجي ينعكس إيجاباً وبشكل طردي على التوافق النفسي للأطفال (حجازي، 2015، ص 28).

وضمن هذا السياق، يرى حدية (2017، ص. 97) أن المحيط النفسي والذاتي للطفل يتأثر سلباً بفعل حزمة من المتغيرات، يأتي في مقدمتها الخصومات العائلية المتكررة، والخيانة الزوجية، بالإضافة إلى الضغوطات والتحديات المترتبة على عمل الأم خارج بيئة المنزل. وفي منحى متصل، يعزو هوارد

بيكر (Becker) هذا الاختلال الوظيفي الأسري إلى محددات أخرى؛ كديمومة الخلافات بين الزوجين، والضائقة الاقتصادية المرتبطة بضعف الدخل، وتعدد الزوجات، فضلاً عن تراجع جودة الممارسات التربوية للوالدين، وتنامي مظاهر العنف الأسري. من زاوية مغايرة، يذهب شويبيل (Schwebel, 1990) إلى أن الصراعات الزوجية تمثل ظاهرة حتمية قد تطرأ حتى في أكثر الأسر تماسكاً، وهو ما يستدعي تقديم تنازلات متبادلة للحفاظ على كينونة الرابطة الأسرية. وتأسيساً على ذلك، يصبح من الضروري أن يركز التفاعل الزوجي على قيم التودد والوئام؛ نظراً لظلالها الإيجابية المباشرة على تحقيق التوازن النفسي للأبناء (النجار، 2009، ص. 94)

تأسيساً على ذلك، تُشير العديد من الدراسات العلمية إلى وجود عوامل عدة تساهم في نجاح الحياة الزوجية؛ من بينها تمتع كلا الزوجين بالصحة النفسية (حجازي، 2015)، والانتماء إلى الثقافة نفسها والتشابه في سمات الشخصية (Kerckhoff & Davis, 1962; Coombs, 1966; Gaunt, 2006)، بالإضافة إلى النضج الانفعالي (Fortin, 2002)، والحب والانجذاب العاطفي (Burger & Milardo, 2004)، والتوافق الزوجي (Jessyca, 2011)، والذكاء الوجداني (Goleman, 1995; Fitness, 2006)، وغيرها. وتستدعي هذه المؤشرات كلها، مما لا شك فيه، ضرورة الاهتمام بالعلاقة الزوجية باعتبارها اللبنة الأساسية في تكوين الأسرة واستقرارها. ومن هذا المنطلق، تبرز الأهمية البالغة لـ«إرشاد الأزواج قبل الزواج وأثناءه، كعملية ضرورية وواجبة ضماناً للصحة النفسية لهما وللأسرة بأسرها» (زهران، 2005، ص. 15).

العلاقة بين الوالدين و الطفل (الاتجاهات الوالدية نحو الطفل)

تُشكل التفاعلات الديناميكية بين الوالدين والطفل داخل المحيط الأسري ركيزة أساسية في تشكيل النمو النفسي السليم خلال مرحلتَي الطفولة والمراهقة. وتؤكد الأدبيات السيكولوجية أن المناخ الأسري القائم على المودة، والتقبل، والدعم المتبادل يعزز الكفاءة الاجتماعية للطفل، وينمي لديه قنوات الثقة بالذات وبالآخرين. في المقابل، تؤدي الممارسات الوالدية السلبية—مثل الحماية الزائدة، أو الإهمال، أو العنف، بالإضافة إلى التمييز بين الجنسين—إلى تعريض مسار النمو النفسي-الاجتماعي للطفل والمراهق لاضطرابات وتأثيرات سلبية حادة.

العلاقات بين الإخوة وديناميتها النفسية

يبرز نسق ثالث من التفاعلات الوالدية-الأسرية ذو أثر بنيوي مباشر في التوافق النفسي للطفل واستقرار البيئة الأسرية، ويتمثل في طبيعة العلاقات الرابطة بين الإخوة. وتُعد هذه الروابط الوجدانية محدداً جوهرياً في تشكيل الملامح الشخصية للطفل، وإنماء أبعاده المعرفية والانفعالية، وهي أبعاد تتبلور وتتكامل

تبعاً لطبيعة الحراك الدينامي داخل المحيط الأسري. وتقدم هذه العلاقة البينية حزمة من المخرجات الإيجابية على الصعيدين السلوكي والمعرفي؛ إذ يمثل الإخوة دعامة للمساندة النفسية المتبادلة، مما يرفع من كفاءة الطفل المرتبطة بآليات التكيف مع الضغوط اليومية، ويسهم في تدويع القيم الأخلاقية عبر التفاعل والخبرات النمائية المشتركة. وفي هذا الإطار، يؤكد ربيع (1991، ص. 87) على الأهمية البالغة لوعي الوالدين بالرهانات السيكلوجية المصاحبة للتنشئة المتزامنة لأطفال متعددين؛ لا سيما ما يرتبط بانثاق مشاعر الغيرة التي تترجم إجرائياً في سلوكيات تنافسية، كالسعي للاستئثار بالرعاية العاطفية الأبوية، أو محاولة الاستحواذ على المقدرات المادية للأسرة، وهي متغيرات تؤثر عميقاً في مسار النضج الانفعالي للطفل

بناءً على ذلك، تشكّل البيئة الأسرية الإيجابية—المستندة إلى تفاعلات بينية سوية بين الشريكين أو بين الآباء والأبناء—ركيزة أساسية لاستقرار الأسرة ونمو الطفل النفسي المتكامل. وتماشياً مع هذا المنظور، تجاوزت السيكلوجيا المعاصرة الاختزال البيولوجي أو الذاتي للاضطرابات النفسية، لتسلط الضوء على الدور الحاسم للمحددات السوسيو-بيئية. وفي هذا السياق، تبرز الأسرة كأهم هذه المحددات؛ باعتبارها النسق الاجتماعي الأول، والمسؤول المباشر عن عملية التنشئة الاجتماعية للطفل. ويستعرض الجدول (1) أدناه أبرز العوامل والمتغيرات الأسرية السلبية وتدايعاتها على التوافق النفسي والنمو الانفعالي للطفل.

الجدول (1): المتغيرات الأسرية السلبية وتأثيراتها في الصحة النفسية للطفل (زهران، 2005، ص 17-18).

الظروف غير المناسبة	وأثارها على الصحة النفسية للطفل
الرفض (أو الإهمال ونقص الرعاية)	الشعور بعدم الأمن، الشعور بالوحدة، السلبية والخضوع، عدم القدرة على تبادل العواطف، الخجل، سوق التوافق...
الحماية الزائدة	عدم القدرة على مواجهة الضغوط البيئية ومواجهة الواقع، الخضوع، القلق، كثرة المطالب، عدم الاتزان الانفعالي.
التدليل	رفض السلطة، عدم الشعور بالمسؤولية، الإفراط في الحاجة إلى انتباه الآخرين.
التسلط (و السيطرة)	الاستسلام والخضوع أو التمرد، عدم الشعور بالكفاءة، الاعتماد السلبي على الآخرين...
المغالطات في المستويات الخلقية المطلوبة	الجمود، الصراع النفسي، الشعور بالإثم، اتهام الذات.
مشكلات النظام والتضارب في النظم المتبعة	عدم تماسك قيم الطفل وتضاربها، عدم الثبات الانفعالي، التردد في اتخاذ القرارات.
الزواج غير السعيد	القلق، الشعور بعدم الأمان، الحرمان الانفعالي، الاكتئاب، ظهور اضطرابات نفسية جسدية.

انفصال الوالدين أو الطلاق	عدم الشعور بالأمن، عدم الاستقرار، العزلة، عدم وجود من يمثل قيمهم وأساليبهم السلوكية، الخوف من المستقبل
اضطراب العلاقات بين الإخوة	العداء والكرهية، الشعور بعدم الأمن، استخدام الحيل العصابية التي يستخدمها الوالدين.
المثالية وارتفاع مستوى الطموح	الإحباط، الشعور بالإثم، امتهان الذات، الشعور بالنقص.
التدريب الخاطئ على عملية الإخراج	الشعور بالعجزو الخوف، العناد
أخطاء التربية الجنسية	الخلل، الشعور بالذنب، اضطراب التوافق الجنسي، الانحرافات الجنسية..

3. دور المناخ النفسي الاجتماعي الأسري في تلبية الحاجات النفسية للطفل.

يتأثر النمو النفسي والاجتماعي للطفل، وإشباع حاجاته الأساسية منذ الطفولة المبكرة، بديناميكية العلاقات الأسرية والمناخ الأسري العام. وفي هذا السياق، تؤكد كاثرين غيغن (Gueguen, 2014) أن شخصية الطفل لا تتشكل من فراغ، بل تبنى من خلال تفاعلاته واحتكاكه بالآخرين، وتنمو سيكولوجياً بشكل سليم بفضل الرعاية التي يتلقاها من المحيطين به. ومن هذا المنطلق، "فالمناخ العاطفي ونوع السلوك الذي يحقق له الأمن والأمان يعتبر التربة الخصبة إن لم نقل شرطاً أساسياً لتفتح شخصيته" (أوزي، 2024، ص. 13). بناءً على ذلك، يصبح الآباء أو القائمون على الرعاية بحاجة ماسة إلى اكتساب المعرفة والخبرة اللازمة لتدبير تعاملهم مع الطفل، بما يضمن تلبية كافة احتياجاته النفسية الأساسية.

وتشمل هذه الرعاية التي تكفلها الأسرة للطفل تلبية حاجاته الأولية (من طعام، ونظافة، ونوم)، كما تتضمن الرعاية النفسية والاجتماعية والوجدانية القائمة على علاقات الحب، والحنان، والقرب، والأمان النفسي. وتتأثر هذه المنظومة طردياً بدينامية العلاقات السوية والصحية داخل النسق الأسري (بين الأم والأب والطفل)؛ وهي الدينامية التي تخصب النمو النفسي الاجتماعي للطفل، وتساهم في بناء مشاعره الأساسية بالثقة والأمان تجاه المحيطين به. هذا الشعور يؤثر مستقبلاً في طبيعة علاقاته اللاحقة، وفي تحقيقه للتكيف السليم مع ذاته ومع بيئته. وفي المقابل، يؤدي إهمال الطفل، وإخفاق الوالدين في خلق مناخ نفسي آمن نتيجة الصراع والشجار المتواصل، فضلاً عن عدم تلبية حاجاته الأساسية؛ إلى زعزعة ثقته بنفسه وبالمجتمع ككل، ويعيق بناء علاقاته الإيجابية مع الآخرين مستقبلاً.

في هذا الصدد، يؤكد سيجموند فرويد (Freud)، مؤسس المقاربة السيكدينامية في علم النفس، أن "الطفل أبو الراشد" (2)؛ بمعنى أن نواة الشخصية لدى الفرد تُبنى في مرحلة الطفولة المبكرة انطلاقاً من مختلف علاقاته الأولى، لا سيما علاقته بالأم باعتبارها أول علاقة اجتماعية للطفل، قبل أن تتسع لتشمل الأب وباقي أفراد الأسرة. وهذا ما يبرهن على أهمية الخبرات الأسرية الأولى في تكوين الشخصية؛ فالأسرة المتماسكة والمتوافقة تعدّ بيئة سوية للنمو النفسي المتزن، أما الأسرة المضطربة - بحسب زهران - فتشكل بيئة خصبة للانحرافات السلوكية، والاضطرابات، والأمراض النفس-اجتماعية.

بناءً على ذلك، تساهم التجارب والعلاقات الديناميكية الأولية السوية التي يعيشها الطفل داخل جماعته الأسرية في إشباع حاجاته العاطفية وتنشئته النفسية والاجتماعية. وتجدر الإشارة إلى أن النمو النفسي للطفل عملية ديناميكية مستمرة تتبلور عبر مراحل متعاقبة، وتتأثر بمجموعة من العوامل النفسية، والاجتماعية، والبيئية التي يبدأ تأثيرها منذ مرحلة ما قبل الولادة؛ إذ تؤكد دراسات سيكولوجية النمو أن البيئة المحيطة بالحامل تنعكس مباشرة على نمو الجنين. ويشمل هذا النمو تغيرات متداخلة في مختلف جوانب الشخصية، حيث تتفاعل هذه الأبعاد كبنية متماسكة ومتكاملة ترتبط في ما بينها ارتباطاً وظيفياً وثيقاً.

في هذا الإطار، يلعب المناخ النفسي الأسري الصحي دوراً أساسياً في النمو النفسي وتكوين شخصية الطفل في جوانبها المختلفة، مما يستوجب رعاية هذه الشخصية وحمايتها منذ سن مبكرة؛ تجنباً لتعرضها للمشكلات النفسية والاضطرابات السلوكية التي قد تقود الطفل إلى التهرب من المدرسة، والفشل الدراسي، والتمرد، والصراع مع الأقران، وغيرها من المشكلات التي تؤدي به إلى فقدان توازن الشخصية" (أوزي، 2024، ص. 13).

وفق هذا المنظور، تتأسس رعاية الطفل أولاً على فهم حاجاته النفسية المختلفة وكيفية إشباعها بطريقة سوية ومتوازنة، وذلك استناداً إلى أولوية هذه الحاجات وأهميتها في كل مرحلة نمائية على حدة. وتُعرف الحاجة بأنها حالة من الحرمان أو الافتقار إلى شيء معين، يُسهم تحقيقه في توليد الشعور بالرضا والارتياح. ومن أبرز الحاجات النفسية الواجب تلبيتها لدى الطفل: «الحاجة إلى الأمن، والانتماء، والمكانة، والتقدير، والحب، والتوافق، والمعرفة، وتنمية القدرات، والنجاح» (زهران، 1986، ص. 61). ويمكن تركيز هذه الحاجات النفسية -خاصة في مرحلة الطفولة- في فئتين رئيسيتين؛ أولاهما: الحاجة إلى الرعاية الوالدية والدفء الأسري، وثانيتها: الحاجة إلى الحب والقبول العاطفي؛ اللتان اعتبرهما ثلة من علماء

2 مفاد هذه المقولة أن التنشئة الأسرية، بما تتضمنه من خبرات وتجارب مبكرة، وطبيعة التفاعلات والعلاقات السيكو-وجدانية القائمة بين الآباء والطفل، تمثل مؤشرات حاسمة في توجيه وصياغة معالم الشخصية المستقبلية للفرد عند بلوغه مرحلة الرشد.

النفس (Spitz, 1945; Bowlby, 1970; Severac, 2012) شرطاً أساسياً للنمو النفسي السوي وبناء الشخصية المتزنة.

في هذا الإطار، يُشكل حرمان الطفل من إشباع حاجاته الأساسية، أو ضعف الإدراك الوالدي بأهميتها، عاملاً حاسماً في تدهور جودة الرعاية المقدمة له، لا سيما عند اقتران ذلك بغياب البيئة العاطفية المستقرة نتيجة النزاعات الأسرية المستمرة وخروج الوالدين للعمل. وينعكس هذا القصور البيئي سلباً على النمو النفسي للطفل وبناء شخصيته، مما يمهّد لظهور اضطرابات نفسية وسلوكية معقدة قد تستعصي على التدخل العلاجي في المراحل النمائية المتقدمة. وتتسق هذه الطروحات مع الأدبيات السيكلوجية الكلاسيكية، وبخاصة أعمال رينيه سبيتز (Spitz, 1968) السريرية حول التداعيات النفسية المترتبة على الحرمان العاطفي والأسري لدى الأطفال.

وفي المنحى ذاته، يرى أحمد أوزي (2002، ص. 11) «معظم مشكلات الأطفال التي تُعرض على الأطباء النفسيين والمعالجين في مجال علم النفس والطب العام لإيجاد الحلول والعلاج الشافي لها، تكمن أغلبها في المشكلات المتعلقة بصعوبات تكيفهم مع بيئتهم الأسرية». وتأسيساً على ذلك، يستعرض الجدول رقم (2) الانعكاسات السلبية الناتجة عن العنف الأسري وإساءة المعاملة على الاستقرار النفسي لكل من الطفل والمراهق.

جدول (2): الآثار السلبية للعنف الأسري وسوء المعاملة على الصحة النفسية للطفل والمراهق (Suderman & Jaffe, 1999).

الآثار المترتبة على النمو حسب كل فئة عمرية	الصحة الجسدية والعقلية Santé physique et mental	النمو العام: الجسدي، المعرفي، الهوية Développement globale: physique, cognitive, identité	المهارات الوظيفية والاجتماعية Fonctionnement et habiletés sociales
قبل الولادة	خطر الوفاة والولادة المبكرة	-	-
من الولادة الى 2 سنوات	-اضطراب في الأكل والنوم -النوبات، والبكاء المفرط	- تأخر نمو الطول والوزن - إشكالات في الانتباه	-
من 2 الى 4 سنوات	- اضطرابات في المسالك البولية، اضطرابات جسدية، كوابيس، القلق، اضطراب ما بعد الصدمة.	العجز في المهارات اللفظية والفكرية	- الاعتماد المفرط على الأم - العدوانية، - القسوة على الحيوانات، - تدمير الممتلكات.

من 5 الى سنة 12	الكآبة، قلق، اكتئاب، اضطراب ما بعد الصدمة، اضطرابات جسدية.	تدني تقدير الذات، الارتباك، الشعور بالذنب واعتبار نفسه مسؤول عن العنف الموجه له، صعوبة في التركيز، المعتقدات النمطية حول الجنسين.	الخوف من جلب الأصدقاء إلى المنزل، عدوانية، الميل الى الانطواء، تدمير الممتلكات، سلوك الإغواء أو التلاعب أو العناد، عدم احترام المرأة
من 12 الى سنة 18	اضطرابات سيكو جسدية، اكتئاب/ الميل الى الانتحار، متلازمة الإجهاد ما بعد الصدمة.	تدني تقدير الذات، التغيب عن الدراسة والهدر المدرسي، تدني المستوى الدراسي، اعتبار نفسه المسؤول عن العنف الزوجي، المعتقدات النمطية حول الجنسين	العنف نحو الآخرين، تعاطي المخدرات، الهروب من البيت، البغاء، الجنوح، عدم احترام أفراد العائلة وخاصة النساء

في هذا الإطار وتأسيساً على ما سبق، يمكن القول إن العلاقات الأسرية والمناخ النفسي الأسري يتكاملان في التأثير على الصحة النفسية للطفل والمراهق، وتعزيز نموها النفسي السوي المتوافق مع بيئتهما. فالصحة النفسية تمثل حالة إيجابية ترتبط طردياً بالبناء النفسي والاجتماعي والصحي للفرد؛ ويتجلى ذلك، من جهة، في الإحساس بالرضا والارتياح النفسي الداخلي، ومن جهة أخرى، في مدى قدرة الفرد على تمثّل القيم السائدة في مجتمعه وجماعاته المرجعية، والاندماج الاجتماعي معها بما يقتضيه التكيف والتلاؤم، والفاعلية والابتكار.

علاوة على ذلك، ونظراً للأهمية الوظيفية للأسرة بوصفها نسقاً يتميز بروابط وجدانية وتفاعلات حميمية، تبرز الحاجة الماسة إلى وعي الوالدين بأدوارهم في توجيه التفاعلات الأسرية. إذ يسهم هذا الوعي في تعزيز الشعور بالانتماء والتوافق والارتباط (السيكو-سوسيومعرفي) داخل الأسرة، باعتبارها إطاراً مرجعياً دينامياً يُشكل الهوية النفسية والاجتماعية لأفرادها.

وبناءً على ما تقدّم، يُشكّل الإرشاد النفسي الأسري دعامة جوهرية في صياغة مشروع الحياة المشتركة بين الشريكين؛ إذ يُمكنهما من استبصار قدراتهما الذاتية، واستيعاب البيئة المحيطة بأبعادها التربوية والمهنية والاجتماعية، مما يسهم في تشكيل رؤية واقعية وإيجابية حول هذه الجوانب. وينعكس ذلك إيجاباً على كفاءة الوالدين في التخطيط المشترك وإدارة الشؤون الأسرية القائمة على المودة المتبادلة. كما يعزز وعيهما بمسؤولياتهما المباشرة في تنشئة الأبناء ودعم نموهم النفسي، مع مراعاة طابع الدينامية والتطور المستمر للطفل، كما أشار إلى ذلك حدية المصطفى (حدية، 2013، ص. 132).

علاوة على ذلك، تُعزز هذه الآلية وعي الشريكين بضرورة تمثّل مهارات التواصل الفعّال؛ كالإنصات، والحوار، والتفاوض، بالإضافة إلى القيادة المشتركة وحل النزاعات، باعتبارها كفايات ذاتية

وتفاعلية محورية في إدارة الحياة الأسرية. وفي هذا السياق، أولت المجتمعات الحديثة اهتماماً بالغاً بالصحة النفسية للنسق الأسري؛ انطلاقاً من المقاربة التي ترى أن سلامة الفرد الامتداد الطبيعي لاستقرار الأسرة، وأن تماسك البنية الأسرية يشكل الحجر الأساس لاستقرار المجتمع، ونموه، وتحقيق أهدافه التنموية.

ثانياً: مدى الحاجة إلى الإرشاد والعلاج النفسي في المجال الأسري

نظراً لتعدد المقاربات العلاجية النفسية الموجهة للأسرة وتشعبها، لا تسعى هذه الورقة البحثية إلى تقديم إحاطة شمولية بها؛ بل تهدف إلى طرح قراءات أولية وملاحظات عامة تؤسس لأرضية نقاش علمي حول هذا الموضوع.

يُعدّ الإرشاد النفسي الأسري من الركائز الجوهرية الموجهة لدعم كيان الأسرة، وتحسينها ضد الأزمات والمخاطر المتنامية الناتجة عن التحولات الديناميكية المتسارعة في السياقات الاجتماعية؛ سواء الداخلية منها أو الخارجية. وفي ظل هذه التغيرات التي باتت تهدد التماسك الأسري بالتفكك أو الاضطراب، تعاظمت الحاجة المجتمعية للاستعانة بالمختصين في شتى العلوم المتداخلة ذات الصلة بالدعم النفسي والاجتماعي. إن معيار قوة المجتمعات المعاصرة بات يُقاس بمدى مناعة منظومتها الأسرية، وقدرتها على الصمود أمام التحديات الراهنة؛ لا سيما مع بروز إفرازات سياقية جديدة تضع الأسرة في خط المواجهة الأول داخل ما يصفه الباحث المغربي (المصطفى حدية) بـ "مجتمع المعرفة"³. وتأسيساً على هذا المنطلق، يشدد (أحمد أوزي) على ضرورة تمكين الآباء وتزويدهم بالمعارف العلمية الدقيقة المتعلقة بحاجات الإنسان ومطالب نموه بشقيها المادي والمعنوي؛ مؤكداً أهمية الإرشاد والتوعية الوقائية لتأهيلهم للقيام بأدوارهم التربوية والمستقبلية بكفاءة.

وفقاً لهذا المنظور، فإن التحولات المعاصرة تفرض على المنظومة الأسرية تحديات جديدة تتطلب من أفرادها (لا سيما الشريكين) تطوير منظومة متكاملة من الكفايات الجسدية والوجدانية والمعرفية والاجتماعية، فضلاً عن مهارات إدارة الحياة اليومية. ويتسق هذا التصور مع أطروحة المفكر مصطفى حجازي، الذي يرى أن مجابهة التحولات المتسارعة الناتجة عن العولمة تفرض على الآباء بناء مرونة

³ يُشير مفهوم مجتمع المعرفة، وفقاً للباحث المغربي المصطفى حدية (2018)، إلى التحول المعاصر نحو بيئة مجتمعية جديدة تنبؤاً فيها المعرفة العلمية والتقنية مكانة الصدارة. ويتسم هذا النموذج المجتمعي بضرورة الارتقاء بالمنظومة التعليمية عبر اعتماد مقاربات بيداغوجية حديثة وتوظيف وسائل تكنولوجيا متطورة تتماشى مع متطلبات العصر. كما يركز على الاستثمار المستدام في الرأسمال البشري من خلال تأهيل وتطوير مهارات القوى العاملة، بما يضمن تعزيز قدراتها على الإنتاج، والابتكار، والتكيف مع ديناميات مجتمع المعرفة.

ديناميكية داخل البنية الأسرية، بما يضمن استيعاب المتغيرات المعاصرة والتكيف معها بفعالية (حجازي، 2015، ص. 12).

تأسيساً على ما تقدّم، يمثّل الإرشاد النفسي الأسري ركيزة استراتيجية أساسية لتأهيل مؤسسة الزواج؛ إذ يساهم في الارتقاء بمستوى الوعي، وتنمية قدرات الزوجين على إدارة الخلافات واتخاذ القرارات التشاركية، فضلاً عن تعزيز كفاءتهما في أداء أدوارهم الوظيفية. وتتكامل هذه المخرجات لتصبّ في تحقيق الاستقرار الأسري من جهة، واحتضان الناشئة في بيئة نفسية صحية ومتوازنة من جهة أخرى. ومن هذا المنطلق، تسعى الدراسة الحالية إلى خدمة هذه المقاصد المحورية.

كما تجدر الإشارة إلى أن الإرشاد النفسي يُمثّل خدمة نفسية واجتماعية يقدمها المرشد النفسي المؤهل (أو الفريق الإرشادي)، وتشمل مجالات متعددة يُعدّ المجال الأسري جزءاً أساسياً منها، وتستوجب ممارسته استيفاء مجموعة من الشروط العلمية والمعرفية والأخلاقية. وفي هذا الصدد، يؤكد حجازي (2015) أن من «أبرز اختصاصات الإرشاد النفسي المكرسة عملياً ومهنيّاً، والمُعترف بها أكاديمياً، هي: الإرشاد الأسري والزوجي، والإرشاد المدرسي، والإرشاد العلاجي (الصحة النفسية). وتستوفي هذه الفروع شروط الممارسة المهنية للإرشاد؛ ونعني بذلك توفر جسم معرفي علمي مترابط، وبرامج تدريب معترف بها، وبرامج إشراف محددة، ومبادئ مهنية وأخلاقية مقننة لممارسة المهنة، إضافة إلى ترخيص مزاولة المهنة» (ص. 37).

بناءً على هذا المنظور، يستند العمل الإرشادي الموجه للأسرة والأزواج إلى ثلاث استراتيجيات أساسية (الشلبي وآخرون، 2013، ص. 21-22):

الاستراتيجية الوقائية (Prevention Strategy): تهدف إلى تبصير الأفراد بواجباتهم، وإكسابهم مهارات التواصل الأسري والمجتمعي، والتكيف مع متطلبات الحياة؛ تحقيقاً للاستقرار النفسي والاجتماعي. وتركز هذه الاستراتيجية على منع ظهور المشكلات والاضطرابات قبل حدوثها، وتحسين البناء الأسري ضد الأزمات المتوقعة.

الاستراتيجية العلاجية (Therapeutic Strategy): تعنى بمساندة الأفراد والأسرة عند مواجهة مشكلات أو أزمات قائمة؛ وذلك من خلال محاصرة المشكلة، والتخفيف من آثارها، ومنع تفاقمها أو تكرارها. كما تسعى إلى تمكين الأطراف من ابتكار حلول وبدائل مناسبة، وتنمية المهارات اللازمة للتكيف الإيجابي مع الواقع.

الاستراتيجية الإنمائية (Development Strategy): تركز على رعاية الأفراد الأصحاء داخل المنظومة الأسرية؛ بهدف تطوير قدراتهم، واكتشاف مواهبهم، وتعزيز قنوات الحوار الفعال لديهم، بما يضمن تحقيق أقصى تفاعل واكتفاء نفسي واجتماعي ممكن، وتنمية ثقتهم بأنفسهم.

وتتكامل هذه الاستراتيجيات لتحسين المنظومة الأسرية برمتها؛ عبر تفعيل آليات تكامل الشخصية، وتطوير المهارات والقدرات الذاتية، مما يساهم في بناء هوية متوازنة وتحقيق التوافق الأسري والاجتماعي المنشود.

خلاصة

تأسيساً على ما سبق، يتبين أن الأسرة تمثل النواة الصلبة للمجتمع؛ إذ تتشكل بنية شخصية الفرد وركائز نموه النفسي والاجتماعي السليم في مرحلة الطفولة المبكرة، مستمدةً مقوماتها من التنشئة الأسرية وطبيعة العلاقات التفاعلية الدينامية السائدة داخل المحيط العائلي.

بناءً على ذلك، فإن رصد هذه الديناميات المركبة والتدخل المبكر لتفادي اضطراباتها يجسد مفهوم الوقاية النفسية للطفل. وإذا كان الاهتمام بالبناء الأسري، وتكوين الاضطرابات الزوجية، وتحسين المناخ العائلي يمثل حجر الأساس لحماية شخصية الطفل، فإن الواجب العلمي والمهني يستلزم نشر ثقافة نفسية وقائية وعلاجية. تتيح هذه الثقافة للمختص النفسي التدخل المبكر لمساندة الأسرة فور ظهور المؤشرات الأولى للاضطراب؛ تجنباً لانعكاسات سلبية قد تؤدي إلى اختلال النسق الأسري أو انحراف سلوك أفرادها، وهي تبعات تلقي بظلالها على المجتمع ككل.

علاوة على ذلك، تشكل هذه الرؤى والمنطلقات النظرية ركيزة أساسية لمقاربتنا لإشكالية الأسرة؛ إذ يغدو من الضروري استثمار مضامينها وتطبيق مرتكزاتها المعرفية لتطوير الأداء الوظيفي للبنية الأسرية في السياق المغربي. وإن تمكين هذه المؤسسة من تحقيق أدوارها وغاياتها المحورية يظل رهيناً بوضع مقاربة نسقية تتوخى إعادة هيكلتها وفق أسس علمية وموجهات تطبيقية حديثة. وتستند هذه المنطلقات إلى محددتين رئيسيتين: الأول يرتبط بحتمية التحولات وديناميات التغير السريع التي تشهدها البيئة المجتمعية المغربية في مختلف أبعادها، والثاني يتعلق بضرورة مواكبة الطفرات العلمية وتلبية متطلبات الممارسة الميدانية للمقاربتين النفسية والنفس-اجتماعية.

في هذا السياق، فإن الارتقاء بالممارسات التربوية داخل الأسرة يستلزم بناء كفايات والدية شاملة تتجاوز الدعم النفسي إلى التأهيل المعرفي والاجتماعي والاقتصادي والعائلي. وتشكل هذه الأبعاد مرجعية صلبة لتمكين الأسرة من تجويد ممارساتها، ومجابهة التعقيدات المتزايدة للأدوار الوالدية المعاصرة،

والتغلب على تحديات العصر الرقمي المتسارعة. ومن هذا المنطلق، تفتح هذه الدراسة الآفاق أمام البحوث المستقبلية لتقصي آليات دمج هذه الكفايات ضمن السياسات العمومية والبرامج التعليمية الموجهة للأسرة.

المراجع

- أحرشواو، الغالي. (2009). الطفل بين الأسرة والمدرسة (ط. 1). منشورات علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة.
- أوزي، أحمد. (2002). الطفل والعلاقات الأسرية. منشورات مجلة علوم التربية، (11).
- أوزي، أحمد. (2024). المشكلات النفسية والسلوكية لدى الأطفال (ط. 1). دار أبي رقرق للطباعة والنشر.
- حدية، المصطفى. (2013). دراسات حول الطفولة والشباب: مقارنة نفسية اجتماعية (ط. 2). الرباط: مطابع الرباط نت.
- حدية، المصطفى. (2017). قضايا في علم النفس الاجتماعي. منشورات المجلة المغربية لعلم النفس، الرباط: مطابع الرباط نت.
- حدية، المصطفى. (2018). الشباب وتحديات الاندماج في مجتمع المعرفة. الرباط: مطابع الرباط نت.
- حجازي، مصطفى. (2011). واقع الإرشاد الأسري ومتطلباته في دول مجلس التعاون. سلسلة الدراسات الاجتماعية، (67).
- حجازي، مصطفى. (2015). الأسرة وصحتها النفسية: المقومات - الديناميات - العمليات (ط. 1). المركز الثقافي العربي.
- ربيع، مبارك. (1991). عواطف الطفل: دراسة في الطفولة والتنشئة الاجتماعية (ط. 2). الشركة المغربية للطباعة والنشر.
- زهران، حامد عبد السلام. (1977). علم النفس الاجتماعي (ط. 4). القاهرة: عالم الكتب.
- زهران، حامد عبد السلام. (1986). علم النفس النمو: الطفولة والمراهقة (ط. 4). القاهرة: دار المعارف.
- زهران، حامد عبد السلام. (2005). الصحة النفسية والعلاج النفسي (ط. 4). القاهرة: عالم الكتب.
- الشلبي، ياسر بن مصطفى، وحمدان، زياد، وشراب، محمد. (2013). واقع الإرشاد الأسري في مراكز وجمعيات الإصلاح الاجتماعي بمنطقة مكة المكرمة- دراسة ميدانية للتطوير. المجلة الدولية للعلوم التربوية والنفسية.
- النجار، يحيى محمود. (2009). علاقة العنف الأسري ببناء سيكولوجية الطفل. مجلة شبكة العلوم النفسية العربية ((Arabpsynet، 23)).

- Delouvée, S. (2010). Psychologie sociale. Dunod.
- Fischer, G.-N. (2010). Les concepts fondamentaux de la psychologie sociale (4e éd.). Dunod.
- Osterrieth, P. (1957). L'enfant et la famille. Éditions du Scarabée.

- Suderman, M., & Jaffe, P. G. (1999). L'enfant exposé à la violence conjugale et familiale : guide à l'intention des éducateurs et des intervenants en santé et en services sociaux. Centre national d'information sur la violence dans la famille, Santé Canada.